(ضوء السقط) يشهد لصاحبه بحسن الخاتمة

د. السعيد السيد عبادة [*]

كتاب (ضوء السقط) هو خاتمة كتب أبي العلاء المعري الذي أملاه - كما حقّقت[١]- في العام الأخير من حياته، وصدر أول مرة بالقاهرة سنة ٢٠٠٣م، بعد تحقيق استمر ثلاثين عامًا. وبه أجاب أبوالعلاء تلميذه أبا عبد الله الأصفهانيّ، الذى سأله أن يشرح له ما يستعجم عليه من الكتاب المعروف بـ (سقط الزند)، فشرح له إلى (الدّرعيات)، ثم كانت الوفاة، التى حضرها وحدّث بها الأصفهانيّ[٢]. ومن الشرح كانت نسخ، بعضها- و هو الأصل - لم يتضمن من المتن إلا المطالع، و إلا القول المشروح، كتلك التى اعتمدتُ عليها في تحقيقه، و بعضها جُمع فيه المتن إلى الشرح، تحت اسم (سقط الزند وضوءه)

(*) أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر – بالقاهرة.

(١) سقط الزند و ضوءه – بتحقيقي – صـ ١١٨ من التقديم.

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء صـ ٦٤.

كنسخة ابن الفُوَطِيّ[٣]، المصورة عندي، أو تحت اسم (ضوء السقط)، كنسخة ابن الورديّ[٤]، التي عنها هـذا الحـديث.

وآثرت أن أتحدث إليكم عن هذا الكتاب لأمرين:

أحدهما: ما لاحظت في مهرجان أبي العلاء بـ (معرّة النعمان ٢٠٠٦ م)، من اتهام له بأقوال لم يحقّق مصدرها – وهو (اللزوميات)- كما ينبغي.

والآخر: ما ورد في (ضوء السقط) من أقوال تشهد لصاحبها بحسن الخاتمة، كما لاحظ ابن الورديّ. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وصدق رسوله الكريم إذ يقول: (وإنما الأعمال بخواتيمها)، رواه البخاريّ في كتابيْ الرِّقاق والقدر، (بابُ: الأعمال بالخواتيم)[٥].

(٣) ابن الفُوَطيّ: عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي المعالي، البغداديّ، المعروف بابن الفُوَطيّ، كذا قال في آخر نسخته من (سقط الزند و ضوءه) ، التى كتبها بمراغة سنة ٦٦٦ هـ، و هو في الرابعة و العشرين، لأنه ولد ببغداد سنة ٦٤٢ هـ، و بها توفي سنة ٧٢٣ هـ، كما في (الأعلام ٣/ ٣٤٩) ، و فيه أيضًا – بعد «الفوطيّ» - : المروزيّ الأصل، الشيبانيّ البغداديّ، أبو الفضل كمال الدين، مؤرخ يعد من الفلاسفة، من ولد معن بن زائدة الشيباني. له: «معجم الآداب في الأسماء والألقاب» قيل، في خمسين مجلدًا، و له نظم جيد. والفُوَطيّ: جده لأمه، نسبته إلى بيع الفـُوَط.

(٤) ابن الورديّ: عمر بن مظفّر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين، ابن الورديّ، المعريّ الكنديّ، شاعر، أديب، مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) سنة ٦٩١ هـ، و ولي القضاء بمنبج، و توفي بحلب سنة ٧٤٩ هـ، له كتب، ومقامات، ومناقضات، و ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٥/ ٦٧).

(٥) صحيح البخاريّ ٨/ ١٢٩، ١٥٥ طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٧٨ هـ، و فتح الباري ١١/ ٣٣٠، ٤٩٩ تصوير دار الفكر (د.ت) عن طبعة السلفية بمصر سنة ١٣٧٩ هـ. قوله:(بخواتيمها) هو الرواية في الموضع الأول (كتاب الرِّقاق)، و(بالخواتيم) جاءت الرواية في الموضع الثاني: (كتاب القدر – باب: العمل بالخواتيم).

ولأن ابن الورديّ كان أول من وقف على شهادة (الضوء) لصاحبه و نوّه بها سوف أورد قوله عنها وأبين مدى تحققه، لعله يكون لنا من تلك الشهادة الآن في الحكم على المعريّ، ما كان لابن الورديّ منها في القديم، قال ابن الورديّ:

«وأنا كنت أتعصّب له، لكونه من المعرة، ثم وقفتُ له على كتاب (استغفر واستغفري)، فأبغضته، وازددت عنه نفرة، و نظرت له في كتاب (لزوم ما لا يلزم)، فرأيت التبرّي منه أحزم، فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما هائمًا حائرًا، و مذبذبًا نافرًا، يقرّ فيهما أن الحق قد خفي عليه، ويودّ لو ظفر باليقين، فأخذه بكلتا يديه، كما قال في مرثية أبيه :

طلبتُ يقينًا من جهينة عنهمُ ولم تخبريني يا جهين سوى ظنِّ
فإن تعهديني لا أزال مسائلًا فإني لم أُعطَ الصحيحَ فأستغنِي(٦)

(٦) شروح سقط الزند ٢/ ٩٢٥، ٩٢٧، و سقط الزند و ضوءه صـ ٣٦٢. وفي الثاني (الظنّ) بالألف واللام. أما استشهاد ابن الورديّ بالبيتين على شك المعريّ، فليس إلا متابعة منه لسابقيه، بدليل قول البطليوسيّ(٤٤٤-٥٢١ هـ) – في شرحه للبيتين: «إنما ذكر «جهينة» هاهنا لقولهم في المثل: (عند جهينة الخبر اليقين). فقال: أردت معرفة ما صار إليه أهل القبور بعد العدم و الفناء، من سعادة أو شقاء، فسألت عن ذلك جهينة الموصوف بأن عنده العلم اليقين، فلم أجد عنده أكثر مما عندي من رجم الظنون، والناس يرون هذا شكًّا منه في البعث و القيامة، و ليس ذلك عندي على ما يتوهمون، وإنما يريد أنه لا يعلم أحدٌ ما صارت حال الموتى إليه، وما الذي قدموا بعد الموت عليه. إلا أن الظن يغلب على من مات على طريقة حسنة أنه قد سعد، و على من مات على طريقة سيئة أنه قد شقي، من غير قطع على أحد منهم بسعادة أو شقاء».

ثم وقفت له على كتاب (ضوء السقط)، الذى أملاه على الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصفهانيّ، الذي لازم الشيخ إلى أن مات، ثم أقام بحلب يروي عنه كتبه، فكان هذا الكتاب عندي مصلحًا لفساده، موضحًا لرجوعه إلى الحق و صحة اعتقاده، فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مَؤُولًا[٧] . ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]. فلقد ضمَّن هذا الكتاب ما يثلج الصدر، و يَلَذّ السمع، ويقرّ العين، ويسرّ القلب، ويُطلق اليد، و يثبّت القدم، من تعظيم رسول الله ﷺخير بريته، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته، وتبجيل الصحابة والرضا عنهم، والأدب عند ذكر ما يتلقَّى منهم، و إيراد محاسن من التفسير، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر المعاد، والترغيب في أذكار الله والأوراد، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها، وهو خاتمة كتبه والأعمال بخواتيمها[٨]».

في هذا القول بيّن ابن الورديّ موقفه من أبي العلاء، حيث كان في أول أمره يتعصب له، لكونه من بلده (المعرة)، ثم أبغضه و تبرأ منه، لما وقف له على كتابيْ (استغفر واستغفري) و(لزوم ما لا يلزم)، لأنه وجده في كليهما هائمًا حائرًا، ثم رضي عنه وعن خاتمته لما وقف على الشاهد بحسنها، وهو (ضوء السقط). ولأن خاتمة أبي العلاء هي ما يعنينا هنا، كان ما يدل عليها من كلام ابن الورديّ هو ما يعنينا كذلك،

(٧) مَؤولاً: اسم مفعول من (أول). قال ابن فارس: الهمزة والواو واللام أصلان، ابتداء الأمر، و انتهاؤه (مقاييس اللغة ١/ ١٥٨ مادة: أول) ، والمعنى على الثاني، أيْ يحكم بصحة إسلامه حال منتهاه.

(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء صـ ٢١١.

فلا تعصبه للمعريّ ولا بغضه إياه مما يعنينا، ما دمنا بصدد تلك الخاتمة، التي شهد بحسنها (ضوء السقط)، كما سجل ابن الورديّ، وفي تسجيله - لا شك - درسٌ من الماضي للحاضر، لعلنا نعتبر، فندع ما قبل الخاتمة إليها في حكمنا على الرجل، لأن الأعمال بخواتيمها كما سبق. وحين ندع ما قبل الخاتمة إليها، و ننظر فيما شهد بحسنها - وهو (ضوء السقط) - سنجده كما وجده ابن الورديّ، يحكم بصحة اعتقاد صاحبه و صحة إسلامه في أواخر حياته، لكن ما ذكره ليس كل ما في (الضوء)، لأن بعضه - كما سيأتي - من (السقط)، و فيما يلي بيان لما ذَكَرَ و لما لم يذكر:

أما تعظيم صاحب (الضوء) لله - أهل العظمة و الجلال -: فهو أول ما يجده المتلقِّي للكتاب، لأن أول جملة في مقدمته هي: «قد علم اللهُ - جلَّت كلمته - أن أحبّ الكلام إليّ ما ذُكر به - عزّ سلطانه - و أُثنيَ به عليه»[٩]. و كحرصه هنا على النعت لله بـ «جلّت كلمته» و «عزّ سلطانه» - حرصه في سائر الكتاب على نعوت الجلالة و التنزيه، لله لا لغيره - بـ «جَلَّ جلاله»[١٠] و «جَلّت عظمته»[١١] و بـ «عزّ و جلّ»[١٢] و بـ «تعالى»[١٣]، وبـ «سبحانه»[١٤] و بـ «سبحانه وتعالى[١٥]. على

---

(٩) سقط الزند و ضوءه صـ ٧.

(١٠) المرجع السابق صـ ٧٨.

(١١) المرجع السابق صـ ٣٤٠، ٥٣٣.

(١٢) المرجع السابق صـ ١٦١.

(١٣) المرجع السابق صـ ١٢٤، ٤٥٢، ٦٨٩.

(١٤) المرجع السابق صـ ٧٩، ٣٢٥، ٣٤٥، ٤٣٨، ٤٨٤، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٨.

(١٥) المرجع السابق صـ ١٨٢، ٢٩٢، ٥٣٩، ٥٥٦، ٥٩٣.

أنني أدعوك إلى تأمل ما بين أوّل المقدمة وآخرها، لأنه إذا كان قد بدأ الجملة الأولى بـ «قد علم الله» فإنه قد بدأ الأخيرة كذلك، إذ هي كما وجدت: «وقد علم الله - و كفى به - أني حسير طريح، أشفق من الأخطاء و أليح»[١٦].

وأما تعظيمه للقرآن: فواضح من ذكره إيّاه، إذ ذكره بثلاثة من أسمائه التي وردت فيه، لكنه لم يذكره بالأعم الأشهر إلا ثلاث مرات، اثنتين بـ (القرآن)[١٧]، وثالثة بـ (كتاب الله)[١٨]، على حين ذكره بالأخص - وهو (الكتاب العزيز) – سبع مرات[١٩]، و إنما كان أخص لأنه لم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت:٤١– ٤٢]، وورد الأول عشرات المرات، في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] وورد الثانى مرتين، في قوله عز من قائل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. على أن من خصوصية الثالث التى إليها قصدتُ، أن (الكتاب العزيز) - كما في التفسير – :هو المنيع المحميّ بحماية الله تعالى[٢٠]، أو هو الكتاب الغالب بقوة الحجة[٢١].

ومن مواضع ذكره في (الضوء) قول أبى العلاء عن الثاني من بيتيه :

---

(١٦) المرجع السابق صـ ١٤. الحسير: المعيي. و الطريح: المطروح. و أليح: أشفق.

(١٧) المرجع السابق صـ ١٥٤، ٢٢٤.

(١٨) المرجع السابق صـ ٥٤٧.

(١٩) المرجع السابق صـ ٧١، ١٠٨، ١٣٠، ٤٠١، ٥٦٠، ٥٦٦، ٦٩٢.

(٢٠) الكشاف – للزمخشريّ – ٤/ ١٥٨.

(٢١) صفوة التفاسير ٣/ ١٢٥.

أأخمـلُ و النبـاهةُ فِيَّ لفـظٌ   وأُقـترُ والقناعـةُ لي عَـتادُ[٢٢]
وَأَلْقَى الموتَ لم تَخِدِ المطايا   بحاجـاتي و لم تَجِـفِ الجيـادُ[٢٣]

والوَخْدُ أكثر ما يستعمل في النعام و الخيل. و الوجيف: يستعمل في الركاب والخيل، وفي (الكتاب العزيز): (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب)»[٢٤].

ومن تعظيم القرآن في (الضوء) - مع ذلك - ما يبدو من اعتداد المعريّ بفصاحته، حتى ليكتفي به في الاستشهاد كما في الموضع السابق وغيره، وحتى ليقدمه في الأكثر إن استشهد بغيره معه، كقوله عن بيته:

كأنّ أُذنيْهِ أَعطتْ قلبه خبرًا   عن السماء بما يلقَى مِنَ الغِيَرِ

«الاثنان عندهم جمعٌ، فلذلك جاز أن يُخبَرَ عنهما بإخبار الجمع. وفي (الكتاب العزيز): ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[ص: ٢٢]، وقال الفرزدق:

فلو بخلت يدايَ بها و ضنّتْ   لكـان علـيّ للقَـدَرِ الخيـارُ

(٢٢) الخامل: ضد النبيه. و الإقتار: الفقر. و العتاد: العُدّة. و المعنى – كما قال البطليوسيّ –: كيف أكون خامل الذكر، غير نبيه القدر، و لي لفظ يفيدني الشرف والنباهة، و يدفع عني الغيّ و السفاهة. و كيف أكون قليل المال فقيرًا، و قد جعلت القناعة لي عتادًا و ظهيرا. (شروح سقط الزند ١/ ٢٨٧).

(٢٣) لم تَخِد: لم تسرع، يقال: وَخَدَت الناقة تَخِدُ ت وَخْدًا ووَخَدَانًا. ولم تَجِفْ: لم تسرع أيضًا، يقال: وَجَفَ وجيفًا. وعن البيتين قال الخوارزميّ: معنى قوله «والنباهة فيّ لفظ»: النباهة لفظ أنا معناه. لعل ذلك المغتاب - الذي أشيرَ إليه في بيت سابق – كان يقدح في أبي العلاء بأنه خامل غير نبيه، و فقير غير غنيّ، و محروم غير فائز، فأنكر عليه أبو العلاء بقوله: «أأخمل» «وأقتر» «و ألقى» (شروح سقط الزند ١/ ٢٨٨).

(٢٤) سقط الزند و ضوءه صـ ١٣٠.

والمراد: أن هذا الفرس أعطته أذناه الأخبار المقضية في السماء، و هذه مبالغة في صفة الفرس بجودة السمع»[٢٥].

وأما تعظيمه لرسول الله ﷺ خير بريته: فقد ورد في (السقط) ثم في (الضوء)، لأننا نجد في (السقط) قوله للشريف أبي إبراهيم محمد[٢٦]:

٢- يابنَ الذي بلسانِهِ وبيانِهِ هُدِيَ الأنامُ ونُزِّل التنزيلُ

٣- عن فضله نطق الكتاب وبَشَّرَتْ بقدومه التوراةُ والإنجيلُ[٢٧]

ثم نجد في (الضوء) - من تعظيم أبى العلاء لخير البرية - أنه لا يذكره في أيّ موضع إلا بوصف (النبيّ)، و إلا متبوعًا بـ «صلّى الله عليه و سلم»، كقوله عن الثاني من بيتيه - و الخطاب للشريف السابق-:

٢٥- يابنَ مُستعرِض الصفوف ببدرٍ ومُبيد الجموع من غطفانِ

٢٦- أحد الخمسة الذين هم الأغـ ـراض في كلّ منطقٍ والمعانِي

«وقوله «أحد الخمسة» :أي النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعليّ، وفاطمة، والحسن، و الحسين.

و السؤال: أيّهما أراد ابن الورديّ - من تعظيم خير البريّة - ما تضمنه المتن، أم ما تضمنه الشرح، في نسخته من (الضوء)؟؟

(٢٥) سقط الزند و ضوءه صـ ٧١، و انظر أيضا صـ ١٠٨، ٥٦٠، ٥٦٦.

(٢٦) الشريف أبو إبراهيم محمد بن أحمد العلويّ:، أديب حلبيّ، كانت بينه و بين أبي العلاء صداقة ومشاعرة، و كانت وفاته قبل الأربعمئة (بغية الطلب في تاريخ حلب ٨٩٦، ٤٣١٥).

(٢٧) سقط الزند و ضوءه صـ ٣٣٨. و الكتاب: هو القرآن.

وأما التقرّب – إلى الله – بمدائح الأشراف من ذريّته - ﷺ-: فهو أظهر في (السقط) منه في (الضوء)، لأننا لا نكاد نجد في (الضوء) إلا التفسير لبعض تلك المدائح، التى وردت في (السقط)، و كانت في اثنين من الأشراف نصًّا، وفي بعض أولادهما ضمنًا.

الشريف الأول : هو أبو إبراهيم محمد بن أحمد(٢٨)، وما قيل فيه ستّ قصائد، جاء في الأخيرة التي رُثي بها:

دعا حلبًا أختَ الغَرِيَّيْنِ مصرعٌ … بِسيفِ قُوَيْقٍ للمكارم والحزم
أَبَ السبعة الشّهْب التي قيل إنّهَا … منفذةُ الأقدار في العُرْبِ والعُجْمِ
وإنْ كنتُ ما سمّيتهم ، فنباهةٌ … كَفَتني بهم ألّا أُعرِّفهمْ باسمِ
فهَذَا، و قد كان الشريف أبوهمُ … أميرَ المعاني ، فارس النثر والنظم
لعلك في يوم القيامة ذاكرِي … فتسأل ربِّي أن يخفّف من إثمِي(٢٩)

والشريف الثاني: هو أبو أحمد الحسين بن موسى(٣٠)، الذي رثاه المعريّ حين كان ببغداد، بفائيته الطويلة التي مطلعها:

---

(٢٨) النصان في صـ ٥ ، ٦.

(٢٩) المرجع السابق صـ ٣٧٥ – ٣٨٨.

الغريّان: بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة، قرب قبر عليّ بن أبى طالب ﵁(معجم البلدان ٤/ ١٩٦). و قويق: نهر حلب. و السيف: أصله ساحل البحر، و استعير لقويق هاهنا – و هو من صغار الأنهار – لأنه عظم قدره بكون هذا المفقود قريبا منه.

(٣٠) أبو أحمد الحسين بن موسى العلويّ، نقيب الطالبيين، الملقب بالطاهر، ولد سنة ٣٠٧هـ، و توفي ببغداد في جمادى الأولى سنة ٤٠٠ هـ (وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٠).

أَوْدَى فليتَ الحادثاتِ كَفافِ مالُ المُسِيفِ وعنبرُ المُستافِ[٣١]

وله فيها يقول:

أبقيتَ فينا كوكبيْنِ سناهما في الصبح والظلماء ليس بخافِ
متأنِّقيْن وفي المكارم أَرْتَعَا مُتألِّقيْن بسُؤددٍ وعفافِ
قَدَريْن في الإرداء، بل مَطَرين في الْـ إجداءِ، بل قمريْن في الإسدافِ
رُزقا العلاءَ، فأهل نجدٍ كلما نطقا الفصاحةَ مثلُ أهل دِيافِ
ساوَى الرضيُّ المرتَضَى و تقاسما خِطط العلا بتناصُفٍ وتَصافِ
حِلفا ندًى سبقا وصلّى الأطهر الـ ـمرضِي، يالثلاثةٍ أحلافِ[٣٢]

وكالمدح ضمّنا في هذه الأبيات لأولاد المرثيّ، مدحُ أبي العلاء الضمنيّ في نص سبق، للزهراء ولولديها الحسن و الحسين رضي الله عنهم[٣٣].

وأما تبجيل الصحابة و الرضا عنهم، و الأدب عند ذكر ما يتلقّى منهم: فيتجلّى في أقوال لأبى العلاء:

منها: قوله عن «القريض» في بيت له[٣٤]: «القريض: الشعر .... و كانت

---

(٣١) سقط الزند و ضوءه صـ ٥١٦. أودى: هلك. و المسيف: الذي ذهب ماله. و المستاف: الذيّ يشمّ الشيء. ومال المسيف: هو المرثيّ، أي إنه كان يعطيه، فلما هلك كان المسيف كأنه قد ذهب ماله. وليت الحادثات كفاف: أي ليت خيرها يقوم بشرّها.

(٣٢) انظر ما سبق صـ ٦.

(٣٣) الأغلب العجليّ: راجز مخضرم، عدّه ابن سلام في الطبقة التاسعة من فحول الإسلاميين (طبقات فحول الشعراء ٢/ ٧٣٧، و الشعر و الشعراء ٢/ ٦١٣).

(٣٤) سقط الزند و ضوءه صـ ٢٥٧.

العرب تفرّق بين القريض و الرّجز، و يقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وجّه إلى الأغلب العجليّ يقول له: ما بقي من شعرك؟ فقال:

أَرَجَزًا تريد أم قريضًا...»

ومنها: قوله عن «بُغَيْبِغ» في رَجَز(٣٥). «و يقال للماء القريب المنتزع: بُغَيْبِغ. وكان لعليّ بن أبي طالب – رحمة الله عليه – قربة [تعرف] بالبُغَيْبِغة ، ويجوز أن تكون سمّيت بذلك لأن ماءها قريب».

ومنها: قوله عن وصفهم الليل بالطول: «وهذا البيت يروى للحسين بن عليّ أبي طالب - رضي الله عنهما-:

كـأنّ الليـلَ موصـولٌ بليـلٍ　　إذا زارتْ سُـــكَينة و الرَّبـــابُ

سُكَينة: ابنته. والرَّباب: أمها. وكانت الرَّباب إذا زارت أهلها أخذت سُكَينة معها، فيطول الليل على الحسين عليه السلام»(٣٦).

ومنها: قوله عن «مَلَطْية» في بيتٍ له(٣٧): «ومَلَطْية: فتحها المسلمون في زمان

---

(٣٥) الرجز الذي استشهد به أبو العلاء على أن «الهَدال» شجر – هو:

يا رُبّ ماء لك بالأجبالِ
أجبال سلمَى الشُّمَّخ الطوالِ
طامٍ، عليه ورق الهدالِ
بُغَيبغٍ يُنزع بالعِقالِ

(٣٦) المرجع السابق صـ ٣٠٢ – ٣٠٣.

(٣٧) البيت من (السقط)، و هو:

و لم يجلبوها من وراء مَلَطْيةٍ　　تَصَدَّع أجبالٌ بها وإكامُ

الصحابة - رضي الله عنهم - ثم غلب عليها الرّوم بعد سنة ثلاثمئة»[٣٨].

و إذا كانت هذه الأقوال و أمثالها[٣٩] مما يشهد لأبي العلاء هنا، فإنه مما يشهد لابن الورديّ كذلك، أنه نظر إليها في الحكم و لم ينظر إلى غيرها، مما خلا من الدعاء سهوًا أو نسيانا[٤٠]، و جلّ من لا يَسْهُو و لا ينسى.

وأما إيراده محاسن من التفسير - يعني (تفسير القرآن الكريم) - فجلّه لغيره، لأننا لا نجد له فيما يبدو إلا قوله عن بيته:

و تَوَخّى له النجاةَ و قد أيـ ـقن أنّ الحِمام بالمرصادِ

«والمرصاد: الذي يرصد فيه الأمر ليقع ... وفي (الكتاب العزيز): ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤]، أي يعلم بأمور العالَم كعلم الراصد للشيء بما يرصده»[٤١]. على حين نجد لغيره - مما أورد - قوله عن بيته:

وإذا الأرضُ و هي غبراءُ صارتْ من دم الطَّعنِ وردةً كالدّهانِ

«واختلفوا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[الرحمن: ٣٧]، ففُسر الدِّهان على وجهين، أحدهما: أنه جمع دُهْن. والآخر: أن الدّهان الأديم الأحمر، و يقال: الدّهان صبغ أحمر»[٤٢]. ثم قوله عن مطلعه:

(٣٨) سقط الزند و ضوءه صـ ٢٢٦.

(٣٩) في الصفحات ١٣٦، ٣٧٥، ٣٩٩.

(٤٠) كما في الصفحات ١٨٠، ٢٢٧، ٣٢٧، ٥٩٤.

(٤١) سقط الزند و ضوءه صـ ٤٠١.

(٤٢) سقط الزند و ضوءه صـ ١٨٢.

لقد آنَ أنْ يثني الجَموحَ لجامُ وأنْ يملك الصّعبَ الأبيّ زمامُ

«الجَمُوح: من جَمَحَ الفرسُ، إذا غلب فارسَهُ على رأسه، ﴿يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧] - في (القرآن) - فسروه: يُسرعون، وهو راجع إلى المعنى الأول»(٤٣) ثم قوله عن بيته:

خافَ غدر الأنام فاستودع الرّ يحَ سليلاً تغذوه دَرَّ العِهادِ

«معنى هذا البيت أن بعض المفسرين يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]، بأن سليمان ﷺ، كان يؤثر أن يكون له أولاد، فلم يرزق إلا واحدًا، و ادّعوا له أنّ الرّيح حضنته تغذوه دَرَّ العِهاد - و هي الأمطار التي يتلو بعضُها بعضًا - و أنها ألقته على كرسيّه ميتًا. و غير هؤلاء يفسّر ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي :شيطانًا، و قيل مَلَكًا»(٤٤).

وأما إقرار أبي العلاء بالبعث: ففي غير موضع من (الضوء) نجد الشاهد على ذلك، كقوله عن هذا البيت - من مرثيته لأبيه-:

ويكنِي شهيدُ المرء غيرك هيبةً وبُقْيَا، و إنْ يُسأل شهيدك لا يكنِي

«أي إن الشهيد الذي يشهد على الإنسان في الآخرة يكني عن بعض أفعاله، لأنها قبيحة، وشهيدك لا يكني عن شيء من فعلك، لأنه كلّه جميل»(٤٥)

(٤٣) سقط الزند و ضوءه صـ ٢٢٤.

(٤٤) سقط الزند و ضوءه صـ ٤٠١.

(٤٥) سقط الزند و ضوءه صـ ٣٦٥، و انظر أيضا صـ ٣٥٦، ٣٨٨.

وأما إشفاقه من اليوم العسير : فمما ورد في (السقط) ثم في (الضوء)، لأننا نجد في الأول قوله للشريف أبى إبراهيم - و هو يرثيه-:

ولا تنسني في الحشر والحوضُ حوله　　عصائبُ شتَّى بين غُرٍّ إلى بُهْمِ
لعلّك في يوم القيامة ذاكِري　　فتسأل ربّي أن يخفّف من إثمِي[٤٦]

ثم نجد في الثاني قوله عن بعض معانيه: «وهذا من الكذب الصُّراح، نسأل الله إقالة العثرة»، ثم قوله عن آخر: «والله المستَغْفَرُ من ذلك و غيره»[٤٧]، إذ لا يعترف بكذبه ويستقيل الله و يستغفره إلا المشفق من اليوم العسير، يوم القيامة ، كما أنه لم يرج مرثيّه أن لا ينساه يوم القيامة إلا لإشفاقه كذلك.

وأما تضليله من أنكر المعاد: فهو من الصريح في (السقط)، و الضمنيّ في (الضوء)، لأننا نجد في الأول:

خُلق النّاسُ للبقاء فَضَلَّتْ　　أمةٌ يحسبونهم للنَّفَادِ

ثم نجد في الثاني - عن البيت - : «أي إنّ أصحاب الشُّروع مجمعون على أن بعد الدنيا آخرة تبقى فيها النفوس، إما في خير وإما في شرّ. و قد حُكي عن أفلاطون الحكيم أنّ النفس الخيّرة تكون مُبَقّاةً في الآخرة، وأنّ النفس السيئة ليس لها بعد الموت بقاء، و رُوي عن أرسطاليس أنه كان يدّعي بقاء النفس الطيبة والخبيثة»[٤٨].

وأما ترغيبه في أذكار الله و الأوراد : فبفعله الذي دل عليه قوله - و قد سبق

(٤٦) المرجع السابق صـ ٣٨٨.
(٤٧) المرجع السابق صـ ١٣٢، ٣٤١.
(٤٨) المرجع السابق صـ ٣٩٤.

بعضه - في أول (الضوء): «قد علم الله - جلّتْ كلمته - أنّ أحبّ الكلام إليّ ما ذكر به [الله] - عزّ سلطانه - وأُثني به عليه، وإذا تكلمت بكلمة لغيره عددتها من غَبْنٍ و غَبَن، تزيد الغصن الشائك من الأُبَنِ ... و إذا نطقت بألفاظ ليست لله، فإنما أنا كما قيل في المثل، مُكرهٌ أخوك لا بَطَل»(٤٩).

وأما خضوعه للشريعة المحمدية و تعظيمها: فليس أدلّ على ذلك مما سبق، إذ كلّه أو جلّه شواهد ونتائج، ومما يدلّ أيضًا على خضوعه للشريعة وعلى تعظيمه إيّاها - عدا ما سبق - أمور:

منها: تفويضه العلم لله عز و جل فيما غاب عنه، كقوله في غير موضع: «والله أعلم»(٥٠).

ومنها: إيمانه بقدرة الله على كل شيء، بدليل قوله المستمدّ من القرآن: «وهو على كل شيء قدير»(٥١).

ومنها: نقده لنفسه، الذي سبق بعضه و منه أيضًا قوله عن بيته:

تُثنِي عليكَ البلادُ أنك لا تأخذ من رِفدها و تَرفِدُهَا

«أي إنك لا تسترفد البلاد، و إنما رِفدك يأتيها. و هذه دعوى باطلٍ، لأن العالم إنما يرزقهم الله - سبحانه - من الأرض»(٥٢).

---

(٤٩) المرجع السابق صـ ٧ – ٩.

الغبن – بالتسكين – في البيع، و الغبن – بالتحريك – في الرّأي. والغصن الشائك: الكثير الشوك. و الأُبن: جمع أُبْنة ، و هي العقدة.

(٥٠) المرجع السابق صـ ١١٦، ٢٠٥، ٦٨٦، ٧٤٥.

(٥١) المرجع السابق صـ ٥٣٨.

(٥٢) المرجع السابق صـ ٣٢٥. الرفد: العطاء. و ترفدها: تعطيها. (اللسان: رفد).

من هذا البيان، لما تضمنه (ضوء السقط) - من الشهادة لصاحبه بحسن الخاتمة - نخلص إلى أمور:

أولها: التيقّن مما أشرت إليه في صدر هذا الكلام، من أنّ نسخة ابن الوردي من (الضوء) قد تضمنت المتن مع الشرح، أي جُمع فيها بين (سقط الزند) و(ضوء السقط)، تحت اسم الثاني، و الدليل على ذلك ما عدّه ابن الوردي من (الضوء) وهو من (السقط)، أعني «مدح الأشراف من ذريته ﷺ»، الذي ورد في سبع قصائد من المتن، هي ذوات الأرقام: ٥، ٨، ١٤، ٢٥، ٦٠، ٤٢،٣٨، والعجب أن يعدّ ابن الورديُّ هذا المديح من غير (السقط) مع معرفته به، حيث استشهد ببعض أبياته فيما سبق، وكأنما خدعه العنوان - عنوان نسخته: ـ (ضوء السقط) - عما تضمنه من متن و شرح، خداعًا أداه إلى أن يعتدّ كل ما فيها من (الضوء).

وثانيهما: أن ماعدا (مدح الأشراف) في قول ابن الوردي كله في (الضوء) استقلالًا أو احتمالًا، استقلالًا في الأكثر، و احتمالًا في الأقل، لأن تبجيل الصحابة، و إيراد محاسن من التفسير، و الإقرار بالبعث ، والترغيب في أذكار الله، و الخضوع للشريعة المحمدية، هذه الخمسة - كما رأينا - مما ضُمّنه (الضوء) وحده، أما تعظيم الرسول ﷺ، والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل مَن أنكر المعاد - فقد وردت ثلاثتها - كما أسلفت - في (السقط) وفي (الضوء).

وثالثها: أن ما تضمنه (الضوء) في قول ابن الوردي استقلالًا واحتمالًا - كافٍ في الشهادة لصاحبه بحسن الخاتمة، و هو لا شك أَكْفَى وأبلغ، إذا أضفنا ما فات ابنَ الوردي - وقد أوضحناه - من تعظيم المعريّ لله سبحانه، ومن تعظيمه لقرآنه، ومن نقده لنفسه.

ورابعها: أن ابن الورديّ على ما أوضحناه، قد ضرب أروع مثل في غضبه ورضاه، لأنه حين غضب لم يغضب إلا لما تصوّره هو من شكّ أبي العلاء، وحين رضي لم يرضَ إلا لما تبينه من حسن الخاتمة لمن غضب عليه، إذ وجد أبا العلاء قد ضمّن خاتمة كتبه - وهو (ضوء السقط)- من إسلامه و إيمانه وإحسانه و تقواه، ما يُثلج الصّدر، و يَلَذّ السمع، و يُقرّ العين، و يسرّ القلب، ويطلق اليد، و يثبّت القدم.

و بعـد:

فهل لنا أن نكون كابن الوردي في النظر والبصر، وفي العدل والإنصاف، فَنَدَع ما قبل الخاتمة إليها، و نحسن الظن بأبي العلاء لحسن خاتمته، امتثالًا لهدي الرسول الكريم : «وإنما الأعمال بالخواتيم».

ثم هل لنا - مع ذلك - أن نقول : رحم الله أبا العلاء، و جعل في ميزان حسناته، ما شهد بحسن خاتمته - أعني (ضوء السقط) - و رضي الله عنّا و عنه.

المصادر والمراجع

١- **الأعلام:** لخير الدين الزركليّ. ط٤، بيروت ١٩٧٩م.

٢- **بغية الطلب في تاريخ حلب:** لابن العديم. ط١، تح د . سهيل زكّار. بيروت ١٩٨٨م.

٣- **تعريف القدماء بأبي العلاء:** لجنة إحياء آثار أبي العلاء. دار الكتب المصرية ١٩٤٤م.

٣- **سقط الزند وضوءه:** لأبي العلاء. مخطوط مصور بمكتبتي من مكتبة بشير أغا بإستانبول.

٤- سقط الزند وضوءه: لأبي العلاء. تحقيق د. السعيد السيد عبادة نشر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٢٠٠٣م.

٥- **شروح سقط الزند:** للتبريزيّ والبطليوسيّ والخوارزميّ (١- ٥) تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين. دار الكتب المصرية ١٣٦٤ –١٣٦٨هـ - ١٩٤٥ –١٩٤٩م.

٦- **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة، طبعة دار المعارف،ط٢، بتحقيق أحمد شاكر ١٩٦٦م.

٧- **صحيح البخاريّ**: طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٧٨هـ.

٨- **صفوة التفاسير**: للشيخ محمد عليّ الصابونيّ. ط٤. بيروت ١٩٨١.

٩- **طبقات فحول الشعراء**: لابن سلام الجمحيّ . قرأه و شرحه الأستاذ محمود محمد شاكر. ط٢، بمطبعة المدنيّ بالقاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١٠- **فتح الباري شرح صحيح البخاريّ**: لابن حجر (١- ١٤). حققه الشيخ عبد العزيز بن باز. و رقّم كتبه و أبوابه و أحاديثه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي. و صحّحه و أخرجه الأستاذ محبّ الدين الخطيب. بيروت (د.ت)، عن طبعة السلفية بمصر ١٣٧٩هـ.

١١- **الكشّاف** : للزمخشريّ، ط٢، بمطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

١٢- **لسان العرب**: لابن منظور. طبعة بولاق بالقاهرة ١٣٠٠هـ.

١٣- **معجم البلدان**: لياقوت الحمويّ. طبعة بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٧م.

١٤- **مقاييس اللغة**: لابن فارس. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. طبع عيسى الحلبيّ ١٣٦٦هـ.

١٥- **وفيات الأعيان**: لابن خلّكان. تحقيق د . إحسان عباس. بيروت ١٩٦٨ – ١٩٧٢م.